

خطبة بعنوان: الدروس المستفادة من خطبة الوداع

بتاريخ: 8 ذو الحجة 1440هـ - 9 أغسطس 2019م

عناصر الخطبة:

الدرس الأول: السمع والطاعة

الدرس الثاني: رعاية الحرمات في الإسلام

الدرس الثالث: القضاء على عادات الجاهلية

الدرس الرابع: حسن معاملة النساء

الدرس الخامس: الإخوة في الله والاعتصام وعدم الفرقة

الدرس السادس: الحرص على حسن الخاتمة

الدرس السابع: الاجتهاد في يوم عرفة

أما بعد:

المقدمة:

أيها المسلمون: لقد حجج النبي - صلى الله عليه وسلم - حجته الوحيدة في العام العاشر من الهجرة؛ هذه الحجة التي وقف النبي - صلى الله عليه وسلم - فيها على عرفات وقال خطبته المشهورة الجامعة المانعة والتي أصبحت دستوراً للأمة في جميع مناحي الحياة الاجتماعية والأسرية والاقتصادية والسياسية وغيرها؛ وسميت حجة الوداع لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - ودع فيها أصحابه بقوله: "أيها الناس: اسمعوا قولي هذا فإني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً". وفعلاً لم يمر عليه بعد هذه الكلمات سوى ثلاثة أشهر؛ ثم لقي ربه تبارك وتعالى؛ وهذه رسالة لكم جميعاً؛ فكم من أناس كانوا معنا في العام الماضي وهم الآن عند الكريم المتعال؛ ولا ندري من منكم يكون بيننا العام القادم إن شاء الله!!

أحبي في الله: لقد اشتملت خطبة الوداع على دروس ووصايا عظيمة وأكد النبي - صلى الله عليه وسلم - عليها وشدد أياً تشديد وكرر ذلك مراراً لخطورة وأهمية هذه الدروس؛ والتي تتمثل فيما يلي:

الدرس الأول: السمع والطاعة

فيجب على المسلم السمع والطاعة والانقياد لأوامر الله - عز وجل - وأوامر رسوله - صلى الله عليه وسلم -؛ وقد أكد - صلى الله عليه وسلم - على هذا في خطبة الوداع فقال: "أيها الناس: اسمعوا قولي هذا". وهذا فيه دعوة للسمع والطاعة لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله - صلى الله عليه وسلم - وقد روي أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود، فقال: اعهد إلي. فقال: إذا سمعت الله يقول { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } فأرעהا سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. (تفسير ابن كثير).

ولقد حفل القرآن الكريم بمواقف كثيرة تدل على سرعة استجابة الصحابة لأوامر الله ورسوله، وكثرت كلماتهم كما في السنة المطهرة: "سمعنا وطاعة لله ورسوله". "بأبي أنت وأمي يا رسول الله" أي: أفديك بأحب الناس إلي في الحياة وهم أبي وأمي؛ وهذا على خلاف اليهود الذين كانوا دوماً يقولون "سمعنا وعصينا".

وبهذه المناسبة سأعقد لك مقارنة بين الفريقين في أمر السمع والطاعة والانقياد، قال تعالى عن المؤمنين: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (النور: 51)، وفي المقابل عصيان اليهود: {مِنَ الَّذِينَ

هَادُوا يُحْرِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعِ عَزِيرٌ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْسُنَنِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
وَاسْمَعِ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } (النساء: 46) .

وهذا مثال آخر: " أتى النبي خبر قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم، فاستشار الناس وأخبرهم ، فقام أبو بكر الصديق ، فقال وأحسن . ثم قام عمر بن الخطاب ، فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : " اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون " ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، ودعا له به . (سيرة ابن هشام) .

وفي المقابل أمر موسى بنى إسرائيل بدخول بيت المقدس ف { قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا
إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (المائدة : 24) .

فلتكن دائم الاستجابة والانقياد والخضوع لأوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم .

إن الصحابة من أول نداء قالوا سمعنا وأطعنا ؛ ونداءات القرآن والسنة معنا منذ أكثر من أربعة عشر قرناً !! ومع ذلك سمعنا وما أطعنا !!
فنحن نسمع نداءات النهي عن الربا والزنا والخمر والقتل والتخريب والتفجير والتكفير وجميع المنكرات ؛ فهل استجبنا لهذه النداءات؟!!

الدرس الثاني: رعاية الحرمات في الإسلام

وهي أول وصية أوصانا بها الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وهي التأكيد على الحرمات بجميع أنواعها؛ فعن أبي بكره - رضي الله عنه - قال: خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم النحر فقال: " أي يوم هذا؟" قلنا: الله ورسوله أعلم، حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: " أليس ذو الحجة؟" قلنا: بلى، قال: "أتدرون أي بلد هذا؟" قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فسكت حتى ظننا أن سيسميه بغير اسمه، فقال: " أليس بالبلدة؟" قلنا: بلى، قال: " فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا، وفي شهركم هذا، في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟" قالوا: نعم، قال: "اللهم اشهد، ليلبغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، ألا فلا ترجئن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" (البخاري ومسلم).

وقد تكلمنا مع حضراتكم في لقاءات عديدة سابقة عن حرمة الدماء؛ وحرمة الأعراض؛ وحرمة المال الخاص والعام؛ وحرمة الزمان والمكان؛ وأفردنا كلا منها بخطبة كاملة مما يغني عن إعادته مرة أخرى.

فعلينا أن نكون وقافين عند حدود الله وفرائضه وحرماته، قال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وترك أشياء من غير نسيان من ربكم ولكن رحمة منه لكم فاقبلوها ولا تبحثوا فيها » (أخرجه الحاكم وصححه).

أحبتني في الله: إياكم إياكم أن تنتهكوا حرمت الله في المكان الحرام أو الزمان الحرام لأن انتهاك الحرمات في الزمان الحرام أو المكان الحرام زوال لكل حسناتك ولو كانت كالجبال: **فَعَنْ ثَوْبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : لِأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ جَبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا ، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : أَمَّا إِيَّاهُمْ إِخْوَانُكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا حَلَّوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا.** (ابن ماجه ورواته ثقات).

الدرس الثالث: القضاء على عادات الجاهلية

فقد وضع النبي - صلى الله عليه وسلم - كل شيء من أمر الجاهلية وعاداتها، فقال: " ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين "، فكل شيء من أمر الجاهلية باطل، فالإسلام قد أبطل أمور الجاهلية؛ فلا كبير، ولا بطر، ولا أشتر، ولا لوأد البنات (دفنهن)

أحياء)، ولا فضل لقبيلة كذا على قبيلة كذا، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح؛ وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: "يا أيُّهَا النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ ، إِلَّا بِالتَّقْوَى". (أحمد والطبراني والبيهقي وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح).

ودماء الجاهلية موضوعة، ومن عدل النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه لم يحكم على الناس بما لم يحكم به على نفسه، وتعلم من ذلك أننا لا بد أن ننفذ أوامر الله - عز وجل - وأوامر النبي - صلى الله عليه وسلم - ونطبقها على أنفسنا قبل أن نأمر غيرنا، حتى لا نكون من الذين قال الله - تعالى - فيهم: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [البقرة: 44].

فبين النبي - صلى الله عليه وسلم - أن أول دم يعضه دم ابن ربيعة، وأيضاً بين أن الربا موضوع وباطل، وأول رباً يضعه - صلى الله عليه وسلم - ربا العباس بن عبدالمطلب؛ فالربا باطل وحرام، والله - عز وجل - قد حرم الربا؛ يقول تعالى: { وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا } [البقرة: 275]، ويقول تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } [البقرة: 278 - 279]، فهذا وعيد شديد لمن لم يتنه عن الربا.

وعن جابر - رضي الله عنه - قال: " لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكِلَ الرِّبَا وَمُؤَكِّلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدِيهِ وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ ". (مسلم) فإياكم والربا؛ وما أكثر طرق أكل الربا في هذا الزمان؛ واعلموا أن أكل الربا ملعون، واللعنة: هي الطرد من رحمة الله - عز وجل - فعلينا بتقوى الله - سبحانه وتعالى - وأكل الحلال، والبعد عن أكل الحرام، والبعد عن التعامل بالربا الذي يُطرد آكله من رحمة الله تعالى.

الدرس الرابع: حسن معاملة النساء

فقد أوصى - صلى الله عليه وسلم - الرجال بحسن معاملة النساء وأكد على ذلك فقال: " فاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمُ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ "، فأمرنا النبي - صلى الله عليه وسلم - بتقوى الله تعالى في النساء، وعلمنا أن نؤدي الحقوق التي علينا قبل النساء، وبين لنا - عليه الصلاة والسلام - أن أصل الفروج حرام بقوله: ((واستحللتم))، فالأصل أن الفروج حرام، ولا يحل منها إلا ما أحله الله - تعالى - .

وإذا كان الله - سبحانه وتعالى - أحل لنا الزواج من النساء، فقد أمرنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بتقوى الله - تعالى - في النساء والإحسان إليهن، فعلى الأزواج أن يُحْسِنُوا فِي إِطْعَامِهِنَّ، وَكِسْوَتِهِنَّ، وَأَنْ يُعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ؛ يقول الله تعالى: { وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا } [النساء: 19]، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - خير الناس لأهله، وهو قُودَتْنَا - صلى الله عليه وسلم.

فهذه رسالة لجميع الأزواج ولا سيما في واقعنا المعاصر الذين يعاملون النساء معاملة العبيد عندهم؛ ويهضمون حقهن سواء في النفقة أو الميراث أو غير ذلك من الحقوق المادية والمعنوية؛ ولتعلم الرجال أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أكد على ذلك في خطبته على الملأ لخطورة الأمر وعواقبه الوخيمة عند الله لمن أساء إلى النساء وذلك لضعفهن؛ كما قال - صلى الله عليه وسلم - في رواية أخرى " اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُنَّ حُلْفَتُنَّ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ؛ فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ؛ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ". (متفق عليه).

الدرس الخامس: الإخوة في الله والاعتصام وعدم الفرقة

فقد حثنا - صلى الله عليه وسلم - على الإخوة في الله التي ندرت في زماننا هذا، يقول صلى الله عليه وسلم: " لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض "، ومعيار الإخوة في الله هو: " أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك "، فهل منا من يجب لأخيه ما يجب لنفسه، أم منا من يخطط لدمار أخيه!!؟

ولقد ضرب لنا سلفنا الصالح أروع الأمثلة في الإخوة والإيثار ؛ وما دار بين سعد بن الربيع وعبدالرحمن بن عوف عنا ببعيد؛ ولقد أهدى رجل من السلف ذراع شاة لأخيه، فأخذ الرجل الذراع وقال: من هو أحوج مني إليه؟ لي أخ يحتاج إليه فأعطاه له، والثالث أخذ الذراع وقال: من أحوج إليه مني؟ لي أخ فأعطاه له، وظل الذراع يدور بينهم حتى عاد إلى الأول، إنه الإيثار الذي عدم هذه الأيام!!
 وأنتم أيضاً تقرأون عن الذين احتضروا في المعركة، فجاء الساقى إلى الأول ليسقيه، فرفض وقال: اذهب إلى أخي الذي بجواري فإنه أشد حاجة مني إلى الماء، وهذا عند الاحتضار! والثاني يقول له: اذهب إلى من بجواري فإنه أحوج إلى الماء مني، وظل يدور بينهم حتى وصل إلى الأخير، ثم قال: عد به إلى الأول، فجاء إلى الأول فوجده قد فارق الحياة، وكذلك الثاني والثالث، فماتوا جميعاً دون أن يشربوا شيئاً، إنه الإيثار والأخوة الصادقة، فأين هي الآن؟ نسأل الله العفو والعافية.

أيها المسلمون: إن ما نراه في واقعنا المعاصر من خلاف وشحناء وفرقة وأحزاب وجماعات قد حذرنا منه النبي - صلى الله عليه وسلم - منذ أربعة عشر قرناً من الزمان؛ لأن التفرق ضعف والتنازع شر، والأعداء يعتمدون على قاعدة " فرق تسد " وقد نجحوا إلى حد ما في زرع الشحناء والبغضاء وإثارة الفتن، وربنا عز وجل حذرنا من ذلك فقال سبحانه { وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } (الأنفال: 46).

فالفُرقة والتحاسد والتباغض والعداء أمورٌ مَنهِيٌّ عنها، وما يَنْهَى ديننا الحنيف عن شيءٍ إلاَّ وهو شرٌّ للبشريَّة، والخير كلُّ الخير في اتِّباع ما شرَّعه الله ودعا إليه نبيُّه، ونبذ الشِّقاق والفُرقة.

أحبتي في الله: إنَّ الأمة الإسلاميَّة متى اجتمعت واتَّحدت، لم تستطع أُمَّةٌ مَهْمَا كانت قُوَّتُهَا النَّيْلُ منها؛ لأن يدَ الله مع الجماعة، ولأنها مع اتِّحادها محمية برَّبِّها، وهذا ما عُرِفَ على مَرِّ السنين، فما قَوِيَتْ أُمَّةٌ مُتَفَرِّقة مُشْتَتَّة، وما ضَعُفَتْ أُمَّةٌ اجْتَمَعَتْ وتكاثَفَتْ وارتبطت برَّبِّها. لذلك أراد حكيم أن يعطى أولاده درساً في ليلة من ليالي الشتاء الباردة حين أحس بقرب أجله ، فاجتمع أولاده حول سريره ، وأراد أن يوصيهم بوصية تنفعهم قبل وفاته ، فطلب منهم أن يحضروا حزمة من الحطب ، وطلب من كل واحد منهم أن يكسر الحزمة ، فلم يستطع أي واحد منهم أن يكسرها ، أخذ الحكيم الحزمة ، وفرقها أعواداً ، وأعطى كل واحد من أبنائه عوداً ، وطلب منهم كسر الأعواد وهي متفرقة ، فكسر كل واحد منهم عوده بسهولة . فقال الأب الذي هو الحكيم : يا أبنائي إياكم والتفرقة ، كونوا كهذه الحزمة متحدين ، حتى لا يقدر عدو على هزيمتكم .

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى..... خطب ولا تفرقوا آحادا

تأبي الرماح إذا اجتمعن تكسراً..... وإذا افترقن تكسرت أفرادا

الدرس السادس: الحرص على حسن الخاتمة

وهذه رسالة للجميع بالمدامومة والثبات على الطاعة حتى يختم لهم بالطاعة كالذي مات في حجة الوداع ويبعث ملبياً ؛ فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ بَيْنَمَا رَجُلٌ وَقَفَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَفَةَ إِذْ وَقَعَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَأَقْصَعَتْهُ أَوْ قَالَ فَأَقْصَعَتْهُ؛ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ وَكَفَّنُوهُ فِي ثَوْبَيْنِ وَلَا تُحِطُّوهُ وَلَا تُحْمَرُوا رَأْسَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَبِّياً" (متفق عليه).
 وهذا ابن مسعود بكى في موته، فقيل له: لم تبك يا ابن مسعود؟ قال: جاءني المرض في زمن الفتنور، أي: فتور الطاعة، وكنت أحب أن يأتيني في زمن النشاط، أي: وأنا أتهجد وأقرأ وأصوم؛ حتى إذا جاء ملك الموت قبضت على طاعة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه: " لا تحمروا رأسه ولا تطيبوه، كفنوه وغسلوه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً "

وقد يقول قائل كيف اكتسب حسن الخاتمة وهذا أمر ليس بيدي؟! وكيف أموت على طاعة؟! والجواب في حكمة أبي حازم سلمة بن دينار حيث يقول: كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيت خيراً فالزمه ، وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيت شراً فاجتنبه. أي: إذا أردت أن تموت على طاعة فالزمها؛ وإن كرهت الموت على معصية فاتركها!!! هذه هي الخلاصة !!

أحبي في الله: إن الإنسان لو عاش على الطاعة وداوم عليها فإن الله الكريم يستحي أن يقبضه على معصية. قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: { وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } أي: " حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، فعياداً بالله من خلاف ذلك."

وقد ذكر الإمام ابن القيم عدة مواقف للخواتيم فقال: " أخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقنونه لا إله إلا الله وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، وهذا مشترٍ جيد، هذه كذا، حتى قضى ولم ينطق بالتوحيد!! وأخبرني من حضر عند وفاة أحد الشحاذين فجعلوا يقولون له: قل لا إله إلا الله؛ فجعل يقول: فلس لله.. فلس لله، حتى ختم بهذه الخاتمة!! وقيل لآخر كان يدمن الغناء: قل لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء ويقول: تانا تنتنا، حتى مات!!! فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فُرطاً؟ فبعيدٌ من قلبٍ بعيدٍ من الله تعالى، غافلٍ عنه، متعبدٍ لهواه، أسيرٍ لشهواته؛ ولسانٍ يابسٍ من ذكره، وجوارحٍ معطلّةٍ من طاعته مشتغلةٍ بمعصيته أن توفق للخاتمة بالحسنى.!! (الداء والدواء)

فالإنسان الذي يداوم على الطاعة وأصبحت سجيةً له يستعمله الله - عز وجل - في عمل الخير عند خاتمته؛ بل ويعسله كما جاء في الحديث؛ فعن أبي أمامة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله بعبدٍ خيراً عَسَلَهُ"، قيل: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما عَسَلَهُ؟ قال: "يُفْتَحُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ". (أحمد والحاكم والطبراني واللفظ له).

وعن أنسٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله بعبدٍ خيراً اسْتَعْمَلَهُ؛ فْقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمَلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: يُؤَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ" (أحمد والحاكم والطبراني والترمذي واللفظ له وقال: هذا حديث حسن صحيح).

فإذا كنتم تريدون الموت على طاعة فالزموها ؛ وإن كرهتم الموت على معصية فاتركوها ؛ والأمر بالعمل وليس بالتمني ؛ فكلنا نتمنى ؛ والعالمون قلة ؛ ونسأل الله أن نكون من القليل كما قال تعالى: { اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } (سبأ: 13).

الدرس السابع: الاجتهاد في يوم عرفة

عباد الله: إذا كنا قد تكلمنا في الدروس السابقة عن الدروس المستفادة من خطبة الوداع؛ فلا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر فضل اليوم الأغر الميمون الذي قيلت فيه هذه الخطبة وهو يوم عرفة؛ ووجوب الاجتهاد فيه .

فيوم عرفه من الأشهر الحرم التي تتضاعف فيها الحسنات كما تتضاعف فيها السيئات؛ وهو من جملة الأيام الأربعين التي واعد الله موسى أن يكلمه فيها ؛ وقد أتم الله الدين فيه .

وقد تضافرت النصوص النبوية في كثرة المغفرة والعتق من النيران في يوم عرفة؛ فعن عائشةُ إنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتَقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنْ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟" (مسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء فيقول لهم : انظروا إلى عبادي جاءوني شعثا غبرا » « البيهقي وابن حبان وابن خزيمة والحاكم وصححه».

وعن أنس بن مالك قال : " وقف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعرفاتٍ وقد كادت الشمسُ أن تَرُوبَ فقال: يا بلالُ أنصتْ لي النَّاسَ. فقام بلالٌ فقال: أنصتوا لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فأنصت النَّاسُ فقال: معشرَ النَّاسِ أتاني جبرائيلُ عليه السَّلامُ أنفًا فأقرأني من ربي السَّلامُ وقال: إِنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ غَفَرَ لِأَهْلِ عَرَفَاتٍ وَأَهْلِ الْمَشْعَرِ وَضَمِنَ عَنْهُمْ التَّيْبَةَ. فقام عمرُ بنُ الخطابِ رضي اللهُ عنه فقال: يا رسولَ

الله هذا لنا خاصة؟! قال: هذا لكم ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة. فقال عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: كثر خيرُ الله وطاب. (الترغيب والترهيب للمنزدي ؛ وقال: إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما).

وعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ وَلَا أَذْخَرُ وَلَا أَحْقَرُ وَلَا أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ؛ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رَأَى مِنْ تَنْزُلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الدُّنُوبِ الْعِظَامِ؛ إِلَّا مَا أَرَى يَوْمَ بَدْرٍ. قِيلَ وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَزِعُ الْمَلَائِكَةَ. " (مالك والبيهقي).

ففي يوم بدر جاء الشيطان في صورة رجل يحفز المشركين على قتال المسلمين؛ وفجأة رأى جبريل عليه السلام ومعه جيش من الملائكة؛ فولى الشيطان ورجع الفهقري ونكص على عقبيه لما رأى جبريل ومن معه. " فعن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من بني مدلج، والشيطان في صورة سراقفة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: { لَا عَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ } فلما اصطف الناس أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين وأقبل جبريل، عليه السلام، إلى إبليس، فلما رآه -وكانت يده في يد رجل من المشركين -انتزع يده ثم ولى مدبرا هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقفة، أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: { إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } وذلك حين رأى الملائكة. (تفسير ابن كثير).

كما يستحب للعبد الإكثار من الدعاء وسؤال حاجته في هذا اليوم الأغر المبارك؛ فعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: حَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ. وَحَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. " (الترمذي وحسنه)؛ قال ابن عبد البر - رحمه الله - : وفي ذلك دليل على فضل يوم عرفة على غيره.

كما يسن صيام يوم عرفة يوم الحج الأكبر، ويوم مغفرة الذنوب، ويوم العتق من النيران، ولو لم يكن في عشر ذي الحجة إلا يوم عرفة لكفاها ذلك فضلاً، فعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم عرفة؟ فقال " صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ. " (مسلم)؛ وهذا لغير الحاج وأما الحاج فلا يسن له صيام يوم عرفة لأنه يوم عيد لأهل الموقف.

كما يجب على المسلم أن يحفظ سمعه وبصره ولسانه وجميع جوارحه في هذا اليوم؛ ففي صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه في وصف حجة النبي صلى الله عليه وسلم أنه " أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهللّه ووحدّه؛ فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً فدفع قبل أن تطلع الشمس؛ وأردف الفضل بن عباس وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيمًا؛ فلما دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرت به طعنٌ يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن؛ فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على وجه الفضل؛ فحوّل الفضل وجهه إلى الشئق الآخر ينظر؛ فحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الشئق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشئق الآخر ينظر.... "

أحبتني في الله: علينا أن نحفظ جوارحنا في هذه الأيام المباركة؛ وأن نجتهد في الطاعة؛ فالחסنات مضاعفة لحرمة الزمان والمكان؛ كما يجب علينا أن نبتعد عن الذنوب والمعاصي لأن العقاب مضاعف أيضاً لحرمة الزمان والمكان.

رزقنا الله وإياكم حج بيته الحرام.

والرحم (الصلوة)،،،،،

الرحم.....

كتبه : خادم الدعوة الإسلامية

د / خالد بدير بدوي